شعر الغزل في ضوء منهج الأدب الإسلامي

دراسة نقدية

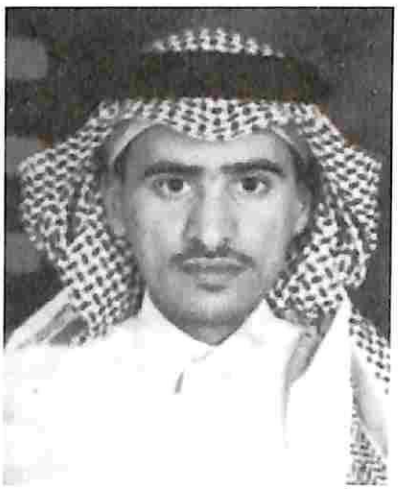

إعداد: بدر بن علي المقبل المطوع

جاءت هذه الدراسة تحت عنوان (شعرالغزل في ضوء منهج الأدب الإسلامي)، وتتضح أهمية شعر الغزل لأنه يعد من أبرز الأغراض الشعرية، فهو يتحدث عن عاطفة الحب، وهي عاطفة إنسانية عامة يشترك فيها أبناء البشرية قاطبة.

وتتأكد أهمية هذا الشعر لما فيه من عنصر الجذب والتشويق والإثارة، فالحديث عن النساء مما تشتهيه الأنفس، وهو فن قابل للتحوير والتأويل ليصبح دعوة صريحة للوقوع في الفاحشة، ودغدغة العواطف والغرائز الجنسية عند المتلقي.

ولإبراز موقف الأدب الإسلامي من هذه القضية وقع اختياري على هذا الموضوع، فالساحة الأدبية بحاجة لطرح مثل هذه القضايا ليسمع صوت الأدب الإسلامي، وبخاصة بعد كثرة دواوين الغزل الشعرية في العصر الحديث.

ويعضد ذلك إهمال بعض نقاد الشعر الحديث - بقصد أو من دون قصد- لميزان الإسلام عند دراسة الشعر الغزلي، فيذهبون لتطبيق المقاييس النقدية المختلفة، ويغفلون عن المقياس الأهم وهو النظرة الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة.

لذا كان الهدف من هذه الدراسة الخروج بالرؤية الإسلامية الواضحة حول غرض الغزل، والوقوف بعد ذلك على السمات العامة لشعر الغزل الذي يرتضيه الأدب الإسلامي وتأصيل ذلك كله بالبحث والدراسة.

وقد انتظمت هذه الدراسة في تمهيد، وثلاثة فصول مشتملة على تسعة مباحث، وخاتمة مذيلة بفهارس عامة.

حيث حاولت في التمهيد تحديد مفهوم شعر الغزل بالرجوع إلى المعاجم العربية، متتبعا مناهج الأدباء والنقاد في تقسيماتهم لهذا الغرض الشعري. فأوضحت مفهوم الغزل، والفرق بينه وبين النسيب والتشبيب، وبينت أن لفظة الغزل، والنسيب، والتشبيب ترد في استعمالات الأدباء والنقاد والكتاب بمعنى واحد، وهو ذلك اللون الشعري الذي يتحدث فيه الشاعر عن محاسن المرأة، وما يبث فيه من شكوى وألم وصبابة بسبب معشوقته. كما أوجزت الحديث عن أبرز أنواع الشعر الغزلي شيوعا عند دارسي الأدب، ذاكرا تعريف كل نوع من هذه الأنواع، ومبينا زمان نشأته ومكانه، موضحا ما يتسم به كل نوع من خصائص تميزه من غيره من الألوان الغزلية.

ثم تناولت في الفصل الأول انقسام الأدباء والنقاد، ومن قبلهم علماء الشريعة حول قبول شعر الغزل، أو رفضه، ذاكرا مسوغات الرفض، والإباحة، عارضا لبعض النماذج التي يستشهد بها كل فريق،

ومقفيا ذلك بالموقف النقدي من كل رأي، فكان المبحث الأول معنيا ببيان فكرة من يرى كراهة التغزل بالنساء مطلقا، مستندا إلى ذلك على ما جاء في الكتاب والسنة من أدلة تنهى عن إشاعة الفحش في المجتمع الإسلامي. كما استند أصحاب هذا الرأي على ما في الشعر الغزلي من خاصية تدعو إلى الصبابة، وتهيج الغرائز، وتحريك مكامن الشهوة، وما إلى ذلك، مما يدعو إلى الفسوق والعصيان، ولاشتمال بعض قصائده على الأذى وقذف المحصنات الغافلات.

أما المبحث الثاني فخصصته لمن يرى إباحة الغزل العفيف بشكل واسع، وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على سماع الرسول ﷺ لقصيدة (بانت سعاد) مع ما فيها من غزل. كما أن التشبيب في رأيهم صنعة يظهر فيها الشعراء مقدرتهم على تحسين الكلام، وتزويقه، وليس القصد منه تحقيق ما يذكره الشعراء في قصائدهم.

وخرجت في المبحث الثالث برأي مختار، مؤيدا ما ذكرته بأدلة ترجيح هذا الاختيار ومسوغاته.

وفي الفصل الثاني تناولت شبهات قبول شعر الغزل الفاحش، والموقف النقدي منها، فوجدت أن أصحاب هذا الاتجاه تأولوا الإباحة بدليل من القرآن بناء على فهم خاطئ لما ورد في الآيات الأخيرة من سورة الشعراء، ولم تكن أقوال الرسول ﷺ وسلف الأمة الصالح بمنأى عن أعينهم، كما اتخذوا مما ورد في بعض المصنفات الأدبية من مجون، ومناهج التأليف عند بعض أعلام الإسلام، وما روي من سماع عبدالله بن عباس رضي الله عنه لرائية عمر بن أبي ربيعة، حجة لهم يستدلون بها على صحة مذهبهم.

وبالوقوف مع هذه الشبهات في ساحة النقاش، اتضح بطلان منهجهم، القائم على التأويل المغلوط، ولَيّ أعناق النصوص،وبتر أقوال الرسول ﷺ، وصحابته الكرام من سياقها الخاص الواردة فيه. كما ظهر جليا تعارض هذه الشبه مع نصوص الشريعة الإسلامية العامة في القرآن الكريم والسنة النبوية.

أما الفصل الثالث، فقد قدمت له بمدخل تحدثت فيه عن ظاهرة المقدمة الغزلية في تاريخ الأدب العربي، توصلت فيه إلى أن المقدمة الغزلية تعد تمهيدا لاجتذاب قوى الشاعر وملكاته المبدعة، فإذا هو مندفع بنشوة ليقول الشعر فيما يريد، كما أنها في الوقت نفسه تسترعي انتباه السامع ليصغي إلى ما يريد الشاعر قوله. وليس بالضرورة أن يصدق هذا الرأي على جميع الشعراء، فمنهم من استهل قصيدته بهذاالمطلع الغزلي عن طيب نفس وفيض خاطر، لأن معشوقته أعزعليه من كل ما يملك، فكان من الطبيعي أن يلهج لسانه بذكرها. كما التزم البعض الآخر من الشعراء هذه الظاهرة الأدبية لأنه جعلها بمثابة القاعدة الفنية، والتقليد الشعري الذي لا يمكن الخروج عليه ومخالفته بحال من الأحوال

ثم انتقلت بعد ذلك إلى توثيق المقدمة الغزلية لقصيدة بانت سعاد من خلال كتب الحديث والسيرة النبوية، وخلصت من ذلك إلى ثبوت سماع المصطفى عليه الصلاة والسلام لهذه القصيدة وما جاء فيها من غزل، وقد روى ذلك عدد من أهل العلم بأسانيد مختلفة، منها الموصول، والمرسل، والموقوف. وخلاصة القول في ذلك : أن تلقي أهل العلم لها بالقبول وعدم النكير دليل على ثبوتها.

أما الموقف النقدي من التصوير الحسي للمرأة في قصيدة كعب بن زهير رضي الله عنه، فقد تناوله جميع النقاد، رأى بعضهم تفسير هذه المقدمة الغزلية بالرمزية، وذهب بعضهم الآخر إلى القول:

إن الرسول ﷺ قد فصل بين قول الشاعر وفعله، مستدلا على ذلك بقبول الرسول عليه الصلاة والسلام لهذه المقدمة الغزلية، مع ما فيها من غزل حسي، وأنكر بعض النقاد سماع الرسول ﷺ لما جاء في هذه القصيدة من غزل، مع أنه ﷺ سمعها وقبل ما جاء فيها على اعتبار أنها تقليدية لم يخرج فيها الشاعر عن حدود العفة والالتزام بتعاليم الإسلام.

وقد ذيلت هذه الدراسة بفهارس للآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، وفهرس للنصوص الشعرية الواردة في البحث، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس تفصيلي للموضوعات التي اشتملت عليها الدراسة.

واعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي للنصوص في الكتب المختلفة، ودراستها، وتحليلها، وتوثيقها، والكشف عن الفروق الدقيقة بينها بالنظر والتأمل. فليست طبيعة هذه الدراسة الاستقصاء التاريخي للأشعار الغزلية عبر تاريخ الأدب الإسلامي الطويل، وإنما هي تقعيد وتأصيل للشعر الغزلي الموافق للتعاليم الإسلامية، وإبراز لسماته التي يرتضيها الأدب الإسلامي، ثم اختيار شواهد شعرية كاشفة عن هذه السمات، وموضحة لهذا المنهج.

ولا أخفي على القارئ الكريم أني عندما شرعت في هذه الدراسة برزت أمامي بعض الصعوبات التي حاولت جاهدا تخطيها لتحقيق الهدف من هذا الموضوع، ومن أظهر تلك الصعوبات:

١ - جدّة الموضوع، وشح مصادره، وتفرق مادته العلمية، حيث إن ميدان الأدب الإسلامي ما زال في طور التأصيل والتنظير.

٢ - مساس هذا الموضوع وتعلقه ببعض المسائل الشرعية، فكان عليّ أن أتوخى الحذر، وأن أعتمد على المصادر الشرعية حين ينبني على الموقف حكم شرعي.

٣ - تداخل موضوعات البحث في المباحث والفصول، فأحسب أنني قد اجتهدت، ومع هذا يبقى جهدي بشريا يعتوره النقصان من بين يديه ومن خلفه، ويخضع للمناقشة والأخذ والرد، وهذا سبيل الدراسات والبحوث العلمية من قبل ومن بعد.

أما أبرز النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة، فهي:

١ - قبول الغزل العفيف، إذا لم يتغزل فيه الشاعر بامرأة أجنبية معينة لا تحل له.

٢ - أن ربط الأدب بالتعاليم الإسلامية، والقيم الأخلاقية، أمر لا يشكل أي خروج عن طبيعة الأدب، ولا يعد قيدا على حرية الشاعر التي يتمتع بها، بل إن ذلك يهيئ له أوسع مجال للتعبير، وأكثره تلاؤما مع الفطرة البشرية.

٣ - ضعف بعض الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ، والتي تدل على إباحة الغزل العفيف مطلقا.

٤ - تراجع بعض الأئمة الأعلام عما صدر عنهم من آراء تبيح الغزل على إطلاقه، كابن حزم في رسالته (طوق الحمامة)، والشيخ علي الطنطاوي في كتابه: (من غزل الفقهاء).

٥ - انفراد ابن إسحاق برواية مرسلة للبيت المنسوب لكعب بن زهير رضي الله عنه:

هيفاء مقبلة، عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول[1]

وعدم ثبوته عن طريق المحدثين، أما أهل العلم بالسيرة فلم يثبته أحد منهم إلا من رواه نقلا عن ابن إسحاق في سيرته.

٦ - اتضح من خلال دراسة الأبيات الغزلية الواردة في مقدمة قصيدة بانت سعاد، أن الوصف الحسي فيها لم يتجاوز أربعة أبيات فقط، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن هذه الأوصاف تقليدية لا جدة فيها ولا ابتكار، وعلى هذا فمن غير المناسب القول بأن هذه المقدمة ركزت على الأوصاف الجسدية للمرأة. وقد قدمت الرسالة في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام. وأشرف عليها الدكتور عبدالله بن صالح العريني، وناقشها كل من د.محمد علي الصامل، و د. عويض حمود العطوي. وأوصت اللجنة بمنح الطالب الماجستير بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى للعام الدراسي ١٤٢٥/١٤٢٦هـ■

(١) سيرة النبي ﷺ لابن إسحاق. ٩٣٩/٣.